

صفة افريقيا فى المصادر العربية حتى نهاية القرن العاشر الهجرى

للدكتور أيمن فؤاد سيد

بدأت أوربا فى التعرف على الشواطىء الافريقية فى منتصف القرن الخامس عشر عندما بدأ البرتغاليون فى التجارة مع شواطىء غينيا واقامة مستوطنات هناك . ثم تبعهم فى ذلك الألمان ثم الدانماركيون ثم الفرنسيون ثم الانجليز وغيرهم .

وكانت معارف أوربا عن افريقيا حتى ذلك الوقت معارف نظرية تعتمد فى جزء كبير منها على ما نقل الى اللغات الأوروبية من نتاج الجغرافيا العربية . وتزايدت معارف أوروبا عن افريقيا بعد أن تم نقل كتابى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للدريسي و« وصف افريقيا » للحسن بن الوزان (جبرليون الافريقى) الى اللغة الايطالية فى أواخر القرن السادس عشر .

وعلى ذلك فان معارف العرب المسلمين عن افريقيا فى العصور الوسطى كانت أوسع وأدق بكثير من معارف الأوروبيين ، رغم أن معرفتهم العملية بافريقيا لم تتعدى اطلاقا ما كان يطلق عليه « دار الاسلام » أو المناطق المجاورة لها والتي كان التجار المسلمون يترددون عليها .

وترجع معرفة العرب بافريقيا الى ما قبل ظهور الاسلام وكانت تتلخص فيما كان يمكنهم الحصول عليه من معلومات عن طريق التجارة عبر البحر الأحمر مع الحبشة . أما الاتصالات المباشرة للعرب مع افريقيا فقد بدأت منذ الأيام الأولى لقيام الدولة الاسلامية . فلم تكد تمض سبع سنوات على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا وقد فتح المسلمون مصر البيزنطية فى سنة ١٩ هـ كنتيجة حتمية لفتحهم الشام وفلسطين ، ثم امتد نفوذ العرب المسلمين بعد ذلك الى ممالك النوبة المسيحية التى ظلت لمدة سبعة قرون حاجزا أمام التوسع العربى الاسلامى فى هذا الاتجاه ، وفى مقابل استمرار

حالة السلام بينهم وبين الدولة الاسلامية كان عليهم ان يدفعوا لها ضريبة
من المال والرؤوس تعرف بالبقط (١) .

وبعد فتح مصر اكتمل الفتح الاسلامى لبقية افريقيا الشمالية على
فترات متلاحقة . ولم يكد القرن الهجرى الأول يشرف على نهايته الا وكان
العرب المسلمون قد اتموا فتح الشمال الافريقى بكماله . ولكن بدلا من أن
يتجه العرب جنوبا فى الأراضى القاحلة جنوب الصحراء ، اتجه الجيش
الاسلامى الفاتح مدعما بالعناصر البربرية شمالا عابرا المضيق الذى يفصل
بلاد المغرب عن شبه جزيرة ايبيريا والذى يحمل الى اليوم اسم الفاتح
الاسلامى (مضيق جبل طارق) ليمدوا النفوذ الاسلامى الى جنوب غرب
أوروبا .

أما معرفة العرب المباشرة بافريقيا الغربية فالفضل فيها يرجع الى تجار
الشمال الافريقى الذين قاموا بالاشتراك مع بعض العرب والفرس بفتح باب
التجارة والدعوة مع غرب افريقيا فى العصر الاسلامى . وعن طريق هؤلاء
التجار وانتقالهم عبر وادى النيل وعلى طول شواطئ افريقيا الشرقية من
جهة وعبر الصحراء من جهة أخرى ، أخذ الكتاب العرب معظم معلوماتهم
عن افريقيا السوداء . ولكن الجغرافيين العرب لم يقدموا لنا معلومات مترابطة
عن شعوب ودول افريقيا الا فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وإن كنا
نجد الكثير من المعلومات النظرية المستمدة من كتب الجغرافيا اليونانية القديمة
متناثرة فى كتابات الموسوعيين الاسلاميين قبل هذا التاريخ .

فحتى القرن الرابع الهجرى . كانت المعلومات التى يقدمها الجغرافيون
العرب قليلة الوضوح وكثيرا ما توقع الباحث فى الحيرة . وبعد ذلك بدأت
الصورة تتضح شيئا فشيئا ، وكانت أكثر المعلومات وضوحا ما يتعلق منها
بوادى النيل فيما وراء صعيد مصر ، فقد كان الاهتمام بهذه المواضع راجع
الى جانب الأهمية التجارية الى الاهتمامات الدفاعية من أجل حماية الاسلام
من الأخطار التى يمكن أن تحدث به من ناحية أعالي النيل .

(١) عن هذه الضريبة راجع ، البلاذرى : فتوح البلدان : ٢٨١-٢٨٢ ،
المسعودى : مروج الذهب ٢ : ١٢٩ — ١٣٠ ، المقرئى : الخطط : ١٩٩ —
Lokkogaard, F., El., ant. «Bakt», I, p. 996. ٢٠٢

نفى أواسط القرن الرابع ، وفى أعقاب فتح الفاطميين لمصر ، أرسل القائد جوهر الصقلى واحدا من سكان صعيد مصر يدعى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى سفيرا له لدى قيرقى ملك النوبة المسيحى يدعوهُ الى إعادة دفع البقط الى حكام مصر الجدد ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن دفعه فى أواخر الدولة الاخشيدية(٢) ويدعوهم كذلك الى الاسلام . ويبدو أن ابن سليم لم يوفق فى مسعاه الأخير ولكنه انتهز هذه الفرصة وقام برحلة الى مملكة النوبة زار خلالها فيما يبدو فقط المنطقة الجنوبية المعروفة بعلوة ، حيث أنه لا يوجد بين أيدينا ما يفيد أنه زار منطقة البجة .

وبعد عودته الى مصر ألف ابن سليم الأسوانى ، تقريبا فى أوائل خلافة الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ، كتابا عنوانه « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ضمنه وصفا جغرافيا لهذه المناطق وخلفيتها التاريخية مع عرض دقيق لحالتها فى وقت زيارته مع بعض الروايات الأسطورية(٣) . أما وصفه للنيل فيمتاز بالكثير من الدقة ، رغم أنه كان يخضع فيما يبدو أحيانا لتأثير الرواية المنقولة التى تستتر وراء الملاحظة المباشرة . ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد فى الأدب العربى الذى يبين لنا المدى الذى وصلت اليه معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل فى هذه الفترة(٤) .

ولأسف فقد فقد هذا الكتاب اليوم وان كان موجودا متداولاً بين الناس على الأقل حتى القرن العاشر الهجرى ، فقد حفظت لنا شذرات منه لدى ثلاثة مؤرخين هم : المقرئى فى خطه وابن اياس فى « نشق الأزهار » والمنوفى فى تاريخه ، ولكن أهم هذه النقول وأوسعها هى ما نقله المقرئى فى الخط .

(٢) المقرئى : المتنى (مخ . باريس) ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقرئى : الخطط ١ : ١٩٠ ،

Brock., GAL SI, 410, Troupeau G., «La description de la Nubie d'al-Uswàni», Arabica I (1954), pp. 276-288; Yusuf. F. Hasan, El., art. «Ibn Sulaym al - Uswàni» III, p. 979; Kheir H. M., « A Contribution to a Textual problem. Ibn Suleym al-Uswàni's Kitāb Akhbār al - Nūba wal - Maqurra wal - Beqa wal - Nil», An. Isl. XXI (1985) pp. 9-72.

(٤) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٢ — ١٩٣ .

وربما من أجل الخلفاء الفاطميين كذلك أن خصص ابن حوقل فقرات مطولة فى كتابه « صورة الأرض » لهذه البلاد فقد كان هذا الجغرافى الرحالة، الذى بدأ رحلته من بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ متخذاً من التجارة مهنة له (٥) ، كان داعياً سياسياً فى الحقيقة . وقد كان ابن حوقل بلا ريب جاسوساً للفاطميين وإن كان لينى بروفنسال لا يقطع بذلك وإنما يراه فقط عميلاً للعباسيين أو الفاطميين (٦) . فابن حوقل يبدى دهشته لاحتفاظ الامويين فى الأندلس باستقلالهم حتى هذا الوقت دون أن يخضعوا لحاكم من حكام المشرق الإسلامى (٧) . ويمكن أن يؤخذ قوله هذا بمثابة اعزاز للفاطميين أو العباسيين بالتدخل .

ويرى كراتشكوفسكى فى ابن حوقل الخبر الأول من بين جغرافى المدرسة الكلاسيكية العربية فى شئون المغرب وكذلك فيما يخص أفريقيا الشرقية ، فهو يورد وصفا مفصلاً لمنطقة البجة وتاريخهم ولارتريا مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر مع وصف دقيق للواحات (٨) .

والى هذه الفترة كذلك يرجع مؤلف الحسن بن أحمد المهلبى عن المسالك والممالك الذى ألفه للخليفة الفاطمى العزيز ، ولذا فكثيراً ما يرد اسمه فى المصادر بعنوان « المقرئى » . ونحن لا نعرف هذا الكتاب إلا عن طريق اقتباسات متفرقة حفظها لنا ياقوت الحموى وأبو الفدا . ويمثل هذا الكتاب أهمية حقيقية للسودان الإفريقى ، ويتضح لنا من متابعة المقتطفات التى نقلها عنه المؤلفون المتأخرون أنه اهتم فى الأساس بأوصاف الطرق وخاصة طرق إفريقيا .

وعلى كل حال فقبل استقرار الفاطميين فى مصر نجد أن المؤرخ والجغرافى الشيعى أحمد بن على بن واضح اليعقوبى يقدم لنا فيما بين سنتى ٢٦٠ و ٢٧٨ هـ سواء فى تاريخه أو فى كتاب « البلدان » وصفا للمسالك الواقعة الى جنوب مدينة سجلماسة ، وللبلاد الواقعة بين أعالى النيل والبحر الأحمر الغنية بمناجمها ومواضعها الاستراتيجية .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ٣ .

(٦) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٤ .

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠٩ .

(٨) نفسه ١٠٤ — ١٠٧ .

وإذا كان وادى النيل يعد طريقا تقليديا للتجارة منذ العصور القديمة ويمثل أهمية هامة للدولة الإسلامية ، فالى الغرب من هذا الطريق كان يوجد طريق آخر غير تقليدى وأقل أهمية من الناحية الدفاعية للدولة الإسلامية ولكنه حيوى بالنسبة لتجارها يمتد من شمال أفريقيا تجاه نيجيريا الحالية . وفى الوقت الذى ارتبط فيه تاريخ هذه المنطقة بالصراع بين الفاطميين فى شمال أفريقيا وأمويو الأندلس للاستيلاء على رؤوس طرق القوافل الواقعة شمال الصحراء نجد أن ابن حوقل يهتم أيضا بذكر المراكز المسيطرة على هذه المسالك وهى من الشمال الى الجنوب : سجلماسة وأوداغست وغانا بالإضافة الى العناية التى يضيفها على فزان وعلى طريق غانا — مصر القديم (٩) .

وفى نفس الفترة التى بدأ فيها ابن حوقل رحلته نجد المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين قد بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى « مروج الذهب » الذى سجل فيه نتائج مشاهداته خلال رحلته التى زار خلالها الكثير من الأقطار . وهذا الكتاب هو فى الأساس كتاب تاريخى وإن كان المسعودى نفسه أديب يهتم قبل كل شيء بالعرض الأدبى . ويضم هذا الكتاب بين دفتيه أفضل تصوير للحياتين الثقافية والاجتماعية للدولة الإسلامية فى عصر الخلافة العباسية . وقد رسم المسعودى فى كتابه صورة أمينة لأفريقيا ولنهر النيل (١٠) ، ولكن الأهمية التى يعطيها المسعودى لأفريقيا تختلف عن تلك التى شغلت ابن حوقل أو ابن سليم الأسوانى ، فهى عنده ترجع الى حجم الدور الذى لعبه بعض أبناء هذه القارة فى أحداث التاريخ الإسلامى وعلى الأخص الدور الذى قام به « الزنج فى جنوب العراق » (١١) .

وآخر المثليين الكبار للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية والتى تضم جغرافيين من أمثال : ابن خرداذبه والاصطخرى وابن الفقيه وابن رسته واليعقوبى وابن حوقل ، هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى البشارى الذى يعتبره شبرنجر « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » . وإذا كانت تشوب هذا الراى بعض المبالغة فإن واحدا من الذين توفروا على

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ١٠١ .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ١ : ١١٤ — ١١٥ و ٢ : ٦٥ — ٧٣ .

(١١) نفسه : ٥ : ١٠٣ — ١٠٤ .

دراسة كتاب المقدسى وهو كرامرز ، يرى فيه أكثر الجغرافيين العرب أصالة وفى مصنفه « أحسن التقاسيم » واحدا من أكثر المصنفات الجغرافية فى الأدب العربى قيمة (١٢) .

وقد قدم المقدسى عن افريقيا معلومات أقل فى القيمة من تلك التى خلفها لنا معاصره ابن حوقل .

وحتى نهاية القرن الرابع كانت النصوص العربية تهتم فى الأساس بافريقيا الشرقية أكثر من اهتمامها بغرب افريقيا . وكما اتضح لنا فان كل المؤلفين الذين سبق ذكرهم هم من المشاركة وهذا لا يعنى أن التأليف فى المغرب الاسلامى قد تأخر ، وانما أخذت مؤلفاتهم الادبية والجغرافية تكتسب صبغة محلية ولم تظهر مؤلفات الاندلسيين والمغاربية وتأخذ مكانتها فى المشرق الاسلامى الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى .

وأول هذه المؤلفات وأهمها فى مجال الجغرافيا هو مؤلف أبو عبيد البكرى (١٣) الذى يحمل أيضا اسم « الممالك والمسالك » وقد اعتبر دوزى البكرى « أكبر جغرافى أخرجته الأندلس قاطبة » (١٤) ، وقد انتهى من تأليف كتابه نحو سنة ٤٦٠ هـ . وللأسف لم يحفظ لنا نص هذا الكتاب كاملا ولكن مخطوطاته استمرت فى الظهور الى وقت قريب بحيث أن الناقص من الكتاب يعد اليوم شيئا قليلا (١٥) . والجزء الذى خصصه البكرى لافريقيا الشمالية أصبح فى متناول الباحثين منذ أن نشره وترجمه الى الفرنسية دى سسلان سنة ١٨٥٧ (١٦) . وقد اعتمد البكرى فى وصفه لافريقيا على كتاب مفقود لمؤلف من أهل القرن الرابع الهجرى هو أبو عبد الله محمد بن يوسف

(١٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٠٨ .

(١٣) انظر كتاب عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الكويت ١٩٧٤ م . .

(14) Dozy, R. Recherches su L'histoire et la litterutuse de é' Espagne pendant le moyen - age, Leiden 1881, I, p. 282.

(١٥) انظر تحقيق عبد الله يوسف الغنيم لقسم جزيرة العرب وقسم مصر من كتاب « الممالك والمسالك » للبكرى ، الكويت ١٩٧٧ و ١٩٨٠ م .

(١٦) نشر بعنوان : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، كذلك نشر عبد الرحمن الحجى « جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب البكرى فى بيروت » ، ١٩٦٨ .

الوراق المتوفى سنة ٣٦٢ هـ الذى ألف نحو هذا التاريخ للحكم المستنصر الأموى كتابا ضخما فى مسالك وممالك افريقيا (١٧) .

واذا ما تركنا البكرى وانتقلنا الى القرن السادس الهجرى نجد أن الأدب الجغرافى العربى قد فقد بعض مكانته فى الشرق الاسلامى ، وأن مغرب العالم الاسلامى أصبحت له الصدارة فى هذا المجال بفضل مؤلف الشريف الإدريسي « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ورغم أن الإدريسي ، كما يقول كراتشكوفسكى هو أبعد من أن يكون أكبر الجغرافيين قاطبة داخل الاطار العام لتطور الادب الجغرافى العربى ، فان كتابه أصبح أكثر الكتب العربية رواجاً وصيتاً فى أوروبا اذ ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كما فعل الإدريسي ، وقد مر وقت كان فيه مؤلفه المثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى فى الدوائر العلمية الأوروبية (١٨) .

وقد ألف الإدريسي هذا الكتاب لروجر الثانى ملك صقلية لذلك فإنه يعرف أيضاً فى الأوساط العلمية باسم « كتاب روجار » . وكان الأصل العربى لهذا الكتاب من أوائل المطبوعات العربية التى أخرجتها مطابع أوروبا فقد طبع أول مرة فى روما سنة ١٥٩٢ . ونقل الكتاب بعد ذلك الى اللاتينية فى سنة ١٦١٩ ، أما الترجمة الفرنسية الكاملة للكتاب فلم تتم الا فى منتصف القرن التاسع عشر وقام بنشرها جوبير أحد علماء الحملة الفرنسية فى جزاير بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ .

وبين هذين التاريخين ظهرت طبعتان جزئية للكتاب ، أما الطبعة الكاملة الصحيحة والتى اعتمدت على مقابلة مخطوطاته المختلفة فلم تظهر الا منذ سنوات قليلة بفضل جهود المعهد الجامعى الشرقى بنابولى ومعهد الدراسات الشرقية بروما وظهرت فى تسعة أقسام مع فهرس شاملة ونشرتها مؤسسة بريل بليدن فى الفترة بين سنتى ١٩٧٠ و ١٩٨٣ م (١٩) .

(١٧) انظر العقدي : الوافى بالوفيات ٥ : ٢٥١ و
Brock., GAL SI, p. 233,

(١٨) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٧٩ .

(19) Al-Idrisi, Opvs Geographicvm (I - IX) Niapoli- Romae 1970-1983.

وأهم أجزاء هذا الكتاب هي تلك التي أفردها الإدريسي لأفريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية ونواحي إيطاليا الأخرى لأنها تعتمد قبل كل شيء خلافاً للاقسام الأخرى ، على الملاحظة الشخصية للمؤلف . وذلك لأن معلوماته عن مصر مثلاً ليست جديدة على الإطلاق لأنه نقلها حرفياً عن كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل .

أما وصفه لأفريقيا فلا يخلو من الفائدة رغم أنه يعتمد فيه اعتماداً كلياً على وصف بطليموس . فوصفه لمجرى النيل الغربى ، أى نهر النيجر ، قد أكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . كذلك فإنه كان على معرفة جيدة بطرق التجارة مع داخل أفريقيا وأورد أسماء المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت مثل : غانا وسلا وبلاد التكرور (٢٠) . وقد وضع المستشرق الألماني هارتمان فى أواخر القرن الثامن عشر بحثاً عن أفريقيا عند الإدريسي كان له شأنه فى ذلك الوقت وإن كان قد عفى عليه الزمان الآن (٢١) .

وإذا ما تركنا الإدريسي وانتقلنا إلى القرن السابع الهجرى نجده قد خلف لنا أكبر معجم جغرافى فى اللغة العربية ، أعنى به « معجم البلدان » لياقوت ابن عبد الله الرهمى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ . وهو أشبه ببوسوعة كبيرة فى الأدب والتاريخ والجغرافيا والأجناس مرتبة على أسماء البلدان . وفيما يخص البلدان الأفريقية فإن المادة التي يقدمها لنا لياقوت محدودة وغير واضحة المصدر .

ويأتى فى نفس الأهمية كتاب « الجغرافيا » لعلى بن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ الذى يقدم لنا معطيات هامة عن سواحل أفريقيا الغربية والشرقية رغم أنه لم يزرها بنفسه وإنما استقى مادته عنها من ملاح عربى لا نعلم عنه شيئاً يدعى ابن فاطمة ، وقد أبحر هذا الملاح على طول الساحل الغربى لأفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت متصلاً عن طريق نهر النيجر بحوض النيل الذى كان الجغرافيون يسمون إليه فى ذلك الوقت منطقة بحيرة تشاد (٢٢) .

(٢٠) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٢٨٧ .
(21) Hartmann, J. M., Edrisi Africa, Getttingen 1796.
(٢٢) كراتشكوفسكى : المصدر السابق ٣٥٩ .

أما فى شرق أفريقيا فان ابن فاطمة بلغ سفالة الزنج على ما يبدو ، وعرف جيدا مدغشقر وربما ترجع اليه تلك الرواية الهامة التى ينفرد بروايتها ابن سعيد والمتعلقة باستيطان الهنود لجزيرة مدغشقر (٢٢) .

وقبل نهاية القرن السادس الهجرى نجد الأدب الجغرافى العربى يستعيز عن كتب المسالك والممالك بنوع آخر من التأليف هو : كتب الرحلات . حقيقة أن الأدب الجغرافى العربى قد عرف رحلات سابقة على هذه الفترة مثل : رحلة ابن بطران الى بلاد البلغار ورحلة ناصر خسرو الى مصر والشام وبلاد العرب الا أنهما كانا يفتنيان الى مشرق العالم الاسلامى وكانت تحركهما دوافع سياسية للقيام بهذه الرحلات . أما الرحلات التى عرفت بعد ذلك فنقد قام بها جديدها ، اذا استثنينا رحلة عبد اللطيف البغدادى الى مصر ، رحالة مغاربة وأندلسيون ، وكان الهدف الأساسى لأصحابها هو أداء فريضة الحج ولكنهم استطاعوا خلال رحلتهم الطويلة فى الذهاب والعودة أن يتوقفوا ويقيموا فى العديد من البلاد والمدن التى مروا بها ، وقدموا لنا أوصافا دقيقة ومعاصرة لحالة هذه البلاد من خلال زيارتهم لها ، وان اختلفت طريقة العرض من واحد الى آخر . فاذا كان ابن جبير وعبد اللطيف البغدادى يقدمون لنا وصفا حيا للمجتمع والعادات وما شاهدوه من آثار فى البلاد التى زاروها فان رحالة آخرين مثل ابن رشيد الفهرى يقدمون لنا مادة غزيرة عن الحياة الثقافية والعلوم التى كانت تدرس بالمدارس فى مصر والشام على الأخص فى هذا العصر .

وربما لم يهتم هؤلاء الرحالة بارتداد بلاد أفريقيا الداخلية . فيما عدا واحدا منهم تمكن بعد أن أدى فريضة الحج أربع مرات وتجول فى أنحاء المعمورة تقريبا حيث زار شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز واستأبول والموصل وبغداد واليمن والهند والصين وجنوب أوروبا ، تمكن من زيارة جوف أفريقيا ذلك هو الرحالة المغربى الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى

(23) Ferraud, G., Relation de Voyages et textes Géographiques Arabes, persans et turks relatifs à L'EXtrême - Orient du XIII Siscles. paris 1914, pp. 317-320.

الطنجى المعروف بابن بطوطة والذي قام برحلته فى الفترة بين سنتى ٧٢٥ و٧٥٣ هـ (٢٤) .

فى سنة ٧٥٣ قام ابن بطوطة برحلة الى قلب افريقيا بتكليف من السلطان أبو عنان المرينى مر فيها على سجلماسة وتغازا وتاسرهلا ومسوفة ومالى وزاغرى وكارسخو وكابرة وزاغة وتنبكتو وكوكو ومولى ويفى . وكانت زيارة ابن بطوطة للمالى فى ايام ملكهم منسا سليمان (اى السلطان سليمان) . وقد ظل وصف ابن بطوطة لافريقيا جنوب الصحراء لا يفضلها شئ الى عهد الرحلات الأوروبية فى القرن التاسع عشر .

وفى نفس الفترة التى قام فيها ابن بطوطة برحلته عرفت مصر والشام فى زمن المماليك نمط جديد من التأليف الموسوعى اضطلع به موظفوا ديوان الانشاء الممالكى الذين لم يروا نى أنفسهم علماء بل كتابا نابهى الشأن اكتسبوا نتيجة خدمتهم فى ديوان الانشاء خبرة كبيرة فى هذا المجال (٢٥) .

ونعد موسوعة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » خير ممثل لهذا النمط وهى مصدر من الدرجة الاولى لدراسة عصر المماليك وعلى الأخص المعلومات التى يوردها عن البلاد التى ربطتها صلات دبلوماسية منتظمة او متقطعة بدولة المماليك . فقد هيا له عمله الحكومى الاطلاع على الوثائق ولقاء الكثير من الرجال والسفراء ، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكنه من اخراج لوحة مفصلة فى وصف العالم المعاصر له .

وقد خصص ابن فضل الله العمرى الأبواب من الثامن الى الحادى عشر من النوع الثاى الخاص بالممالك نى ذكر ممالك افريقيا السوداء . فجعل الباب الثامن لذكر ممالك المسلمين بالحبشة ، والباب التاسع لذكر ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد الى مصر وهى : مملكة الكانم (منطقة

(٢٤) طبعت رحلة ابن بطوطة أكثر من مرة وقد رجعت الى الطبعة المصرية بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » فى جزاين ، مصر ١٩٢٩ .

(٢٥) راجع مقدماتى لممالك مصر والشام والحجاز واليمن من مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، القاهرة ١٩٨٥ .

تشاد الحالية) ومملكة النوبة ، والباب العاشر لذكر مملكة مالى ، اما الباب الحادى عشر فجعله لذكر مملكة جبال البربر .

وقبل ان نستطرد فى ذكر قيمة ما كتبه العمرى عن ممالك افريقيا نشير الى ان القلقشندى فى القرن التالى اعتمد اعتمادا كليا على موسوعة العمرى فى القسم الذى خصصه فى كتابه « صبيح الاعشى » لذكر تاريخ ممالك الاسلام ، غير أنه تميز على كتاب العمرى بدقة النبوي ووضوح العرض ، الا انه لا يمثل عصره تماما اذ هو تكرر لما ذكره العمرى مع شيء من التوسيع والاسهاب ويرسم صورة لما كانت عليه تلك الممالك فى القرن الثامن الهجرى الذى ألف فيه ابن فضل الله العمرى موسوعته (٢٦) .

وهذا القسم لم ينشر بعد فى أصله العربى وإنما نقله الى الفرنسية مع تعليقات هامة المستشرق الفرنسى جودفرى دى مومبين سنة ١٩٢٧ (٢٧) .

أما آخر المؤلفين الكبار فى محيط الجغرافيا العربية ببلاد المغرب فهو الحسن بن محمد الوزان المعروف بجون ليو الانريقى (٢٨) . صاحب كتاب « وصف افريقيا » وقد ولد الحسن الوزان فى غرناطة نحو سنة ٩٠١ ونشأ فى فاس ثم كلفه بنو وطاس بثلاث سفارات دبلوماسية فى جنوب المغرب ، ثم زار مكة فى سنة ٩٢١ ثم استامبول ومصر وعند عودته اختطفه قراصنة سقليون وحملوه الى نابولى سنة ٩٢٦ ثم الى روما حيث عمده البابا باسم Johannes Leo والى وهو فى روما عددا من المؤلفات لم يصل إلينا منها فى اللغة العربية الا واحدا عبارة عن معجم عربى - عبرى - لاتنى ألفه سنة ٩٣٠ هـ . أما مصنفه الرئيسى فغير معروف الا فى ترجمانه الأوروبية فى حين

(٢٦) القلقشندى : صبح الاعشى : ٦٧٣ - ٣٣٧ .

(27) Gaudefroy - Demombynes, Masàlik al-Absàr fī Mamà al-Absàr. I. L'Afrique mām L'Égypt, BGA, Paris 1927.

(٢٨) انظر : مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ، ٣ : ٢٢ - ٢٣ وفى الطبعة الثانية ٥ : ٧٢٨ - ٧٢٩ ، كارتشكوفسكى : المصدر السابق ٥٠ - ٤٥٥ ، مصطفى مسعد : الحسن بن محمد الوزان (ليو الانريقى) ، اضاء على رحلته فى بلاد السودان ومصر ، مجلة جامعة القاهرة - فرع الخرطوم ١٩٧٠ . وفقد منه الطبعتين العربيتين للكتاب .

أن أصله العربى مفقود تماما ذلك ان الحسن الوزان ترجم كتابه بنفسه الى الإيطالية فى ١٠ مارس سنة ١٥٢٦ .

وقد استطاع الحسن الوزان خلال رحلاته العديدة ، التى لا نعرف دوائفه اليها ، أن يتعرف بصورة جيدة على افريقيا الداخلية والشمالية وقد ختم رحلته بذكر الأهداف التى وضعها نصب عينيه أثناء تأليفه مصنفه يقول : « هذا على وجه العموم ما أبصرته من الأشياء الغريبة التى علقت بذهنى أنا جيوفانى ليونى ، عن جميع افريقيا التى عبرتها من أقصاها الى أقصاها ، وقد سجلت بعناية ، يوما فيوما ، كل الأشياء التى رايتها بعينى راسى وبدأ لى أنها تستحق الذكر وما لم أره بنفسى بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم . ثم بذلت جهودى فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودى بروما وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة ١٥٢٦ من ميلاد المسيح » (٢٩) .

وينقسم الكتاب الى تسعة أقسام يعالج الأول منها الكلام على افريقيا بصورة عامة وعن سكانها من البدو الرحل ، أما الثانى فيصف نواحى مراكش ومدنها وجبالها بينما أفرد الثالث للكلام على مدينة فاس والرابع لتطمين والخامس لبجاية وتونس والسادس لطرابلس ، أما السابع فلدول السودان والثامن لمصر . بينما يقدم التاسع وصفا موجزا للأنهار والحيوان والأسماك والطيور والمعارف والنباتات الموجودة بافريقيا .

وقليلا ما يشير الحسن الوزان الى مصادره وهى تنحصر فى المسعودى والبكرى والادريسى ولسان الدين ابن الخطيب وابن بشكوال ، أما أكثر نقوله فعن طريق ابن الرقيق الذى ألف كتابا فى تاريخ افريقية فى أواسط القرن الرابع الهجرى وابه يدين الحسن الوزان بمعلوماته عن القبائل العربية والبربرية ويتردد كبير من المعطيات المختلفة . وعلى كل حال فان قيمة كتاب « وصف افريقيا » لم تكن فيما ينقله عن الغير بل فى ملاحظاته الشخصية التى تشكل القسم الأساسى من مصنفه (٣٠) .

(٢٩) وصف افريقيا ٦٢٢ (ترجمة عبد الرحمن حميدة) .

(٣٠) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٤٥٣ .

ولقد لقي هذا المصنف الهام اهتماما من الأوساط العلمية الأوروبية فترجم إلى اللاتينية والفرنسية سنة ١٥٥٦ ثم ترجم حوالى عام ١٦٠٠ إلى الانجليزية. أما أحدث نشرات الكتاب فتحقيق شيفر للترجمة الفرنسية والتي ظهرت بين عامى ١٨٩٦ — ١٨٩٨ ونشرة براون للترجمة الانجليزية والتي صدرت سنة ١٨٩٦ . ثم ظهرت طبعة حديثة للترجمة الفرنسية فى سنة ١٩٥٦ قام بها اييولار .

وللأسف فإن هذا المؤلف الهام ظل بعيدا عن التراث العربى رغم أن مؤلفه صاغه فى أول الأمر باللغة العربية الى أن ظهرت له فى العشر سنوات الأخيرة ترجمتين الأولى فى الرياض سنة ١٩٧٨ بتحقيق الاستاذ عبد الرحمن حميدة ظهرت بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى فى الرياض ثم ترجمة أدق ظهرت فى المغرب وبيروت فى سنتى ١٩٨٠ و ١٩٨٣ بعناية الاستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر .